الكتابة حاجة داخل القلب

يمنى العيد

من صور تراود أحلام يقظتي، هي صورة الأفواه المتعلّقة بالكلام المدفون، عنوةً في الصدور، بدأت علاقتي بالكتابة. ومن غربة قرأت لها، في ما بعد، صورة في أدبنا الحديث، صغت سؤالي الذي قاربت به النصوص.

الصورة الأولى هي لذاك الصندوق الصغير الذي رأيته، طفلةً، يخرج من دارنا الكبيرة المفتوحة على السماء. سألت أمي :

– لماذا لم تخبّئيه في خزانتك ؟

بكت أمي ولم تجب. فاتهمتها بالخضوع، واتهمت أبي وعمّي بالتواطؤ مع الرجال الذين حملوا أمين خارج الدار كي لا يعود أبداً الى سريره بقربي.

وهي، ايضاً، لذلك الرجل كنت أراه يحزّ بأظافر يده لحظات موته فوق كلس الجدار. كان كمن يرغب في إخراج صمته الطويل قبل ان يودّع الحياة، او كان كمن يرغب في التعبير عن لا جدوى الكلام في زمن صار فيه الانسان ينتقل من قمع الى قمع، ومن مذلّة الى مذلّة.

أما الصورة الثانية فهي لأشخاص وجدتهم يتحولّون في الحكاية العربية من أبطال مفترضين الى شهود فعليين على واقع يتفتت أمام أبصارهم، ويسقط تحت وطأة دمار طاغٍ، وعام، تلتبس فيه هوية القاتل والضحية، فيغيب العدوّ خلفَ قناع الصديق، وتتبدّد المعاني في التصادم العبثي.

حاجة بدأت الكتابة.. بلا عبادة. كانت داخل معابر جسدي، قلقاً يبحث عن معنى المكبوت بشكل علامات حزن فوق وجه أمي، وخربشات فوق ذلك الجدار... كانت نافذة صغيرة نثقبه ونطلّ منه على البحر، على أفق أبعد من الجدار الذي مات أسفله الرجل بعد ان رسم عليه سرّه.

حاجة في القلب.. تأخرّتْ عبارتُها عندي لأن القمع كان إرثاً مضاعفاً بالأنوثة في بلادي.

ويوم توسلت الحرف بدا لي سبيلاً الى معنى. أعربته فيه، فنطق بغير لغته، بغير ما كان يقول.. لأن المعاني حين نعربها في التاريخ تختلف لغتها. وإلا بقي الحرف يصرخ : احفظوا نهاري كي أضيء ليلكم. حرّروا مكبوتي كي أنتقل بكم الى حلمكم.

وقد أسمع من يقول : ليس للكتابة حين تقول قلق القلب، وحلم يقظة الذاكرة، أن تأتي، كما هو النقد، قولاً عن قول، او لغة ثانية. أي دراسة تكتب عن الكتب بدل ان تكتب عن الحياة، لأنها بذلك تفقد لهيب الأعماق وعلاقتها الحيّة بقرائها.

ولعلّي أقول ان بإمكاننا ان نضع المرايا قبالة المرايا دون ان نخنق قلق القلب ونقفز فوق حلم يقظة الذاكرة، على أساس ان من يقرأ الكتب ليكتب عنها، إنما يقرأ ايضاً الحياة خارج الكتب، وان الكلام على لغة أولى ولغة ثانية هو، في نظر العلم، أمر لا يخلو من وهم، لأن من يكتب عن الحياة يقرأ أيضاً في الكتب عنها، وان ثقافة المكتوب ليست تالية على ثقافة الشفوي، ومن يكتب عالم الحياة انما يكتبه من ثقافة يتداخل فيها الشفوي بالمكتوب، وان من يقرأ في الكتب يشارك ايضاً في كتابتها.

هكذا، فأنا حين ملتُ الى الكتابة عن الكتب، كنت أحاول ان أجعل المرايا تقرأ المرايا وتكتبها. وتدخل المرايا في المرايا ؛ مرايا الكتب، مرايا المعاش ومرايا الحكايات عنه، المرجع الحيّ في حركته وديناميته ومتغيّراته، ومرايا اللغة في محمولاتها الايديولوجية من جهة، وفي تفكيكها لهذه الاديولوجيات ولتشكلاتها الدلالية المختلفة من جهة ثانية.

تقرأ المرايا وتكتبها في مساحة إبداعية مشتركة، قوامها المعرفة المميّزة بلغتها وخطابها.

كانت الكتابة بالنسبة لي، وما زالت على مساس بسؤال يخصّ حياتنا وزمننا المسروق منا. كانت سؤالاً عن ذلك المكبوت، وعن تلك الغربة لصورة انسان في الذاكرة وفي الكتابة الأدبية.

كانت سؤالاً عن حياة، وواقع، هما أشبه بزمن معلّق بين ماضٍ نعجز عن تفكيكه وتزمين النيّر من عناصره، وبين مستقبل يهوي حلمه كلما رفعناه فوق أرض فكرية نكتشف، متأخرين، رخاوتها.

والسؤال هذا هو حوار مع أجوبة تضمرها الكتب، او مع أسئلة تثيرها الكتب. وفي هذه الحركة، وعلى حدّ هذه الفاعليّة، والتقاطع، بين الكتب وقراءتها، تبدو لي الدراسة النقدية فعلاً نشطاً معنياً كما الكتب، بالحياة.

الدراسة النقدية، كما فهمتها ومارستها، سعي لنقل القراءة من الاستسلام للخطاب الأدبي-الثقافي الى الحوار معه، ومن التلقي السكوني لمرسلاته الى معاينة هذه المرسلات، والتبصّر في دلالاتها، وذلك من منطلق واقعنا، وموجبات حياتنا فيه.

وهذا لا يعني تشكيكاً في ما يقوله الأدب، بل بغية أن تتمكن القراءة، كما الكتابة، من المساهمة المشتركة في تكوين بنية الثقافة، وبلورة متغيرات الحياة.. وحتى يصبح بمقدورنا الكلام على ممارسة ديمقراطية، فعلية، في مجال الثقافة، وعلى تقدمٍ في مجال بناء الأوطان.

إن مسألة هذا التدخل بين الكتب والحياة، او بين الكتابة والقراءة، هي في وجه هام منها، مسألة معرفة ينتجها الخطاب الأدبي ومعايير الجنس الأدبي. معرفة يلذّ لنا ان نتوسلها بمداركنا كلها. ربما للكشف عن معنى المكبوت الذي نعي او لا نعي، عن معنى المقموع الذي تعذبنا سطوته، او الذي ألفنا واستسغنا.. هي معرفة نلوذ بها نقدياً ضد خطاب ثقافي يرحّب، مواربةً، بالشعوذة، او يجعل من لغتها ترميزاً يبسطه بخوراً على أعتاب من يمحو تاريخنا، ويستأثر بكدّنا، ويجني لترفه ثمار ما نزرع، ويدوس بقدمه الواحدة براعم الأمل في قلوبنا.

من المعلوم ان الأدب، كما الفن، ليس خطاباً يدّعي لذاته حرية تصوير حقائق ما نعيش ونشهد. والكلام حين يرتقي الى مستوى الابداع، لا يعقل ان يكون فقاقيع صابون تعوّضنا عن الكبت ثرثرة، وعن حقنا في الحياة قناعةً بالحرمان منها، بل هو (الأدب كما الفن)

بناء عالم على مستوى المتخيّل، من أهم معانيه في تاريخنا الحديث، إضاءة الشق المظلم من واقعنا، وبلورة وعيٍ بمأساة الانسان المفمومة حريته، والمغرَّب عن ذاته وهويته ووطنه.

ولئن كان الخطاب الثقافي-الأدبي هو، بالنسبة لنا، نحن أبناء هذا العالم الحضاري القديم الذي يسمّونه متخلفاً، الخطاب الانتاجي الأكثر إمكاناً وفاعلية، نسبة الى حقول الانتاج الأخرى، فإن الحوار النقدي، لهذا الخطاب، هو يطرح السؤال المشترك بين الكتابة والقراءة والحياة. يطرحه على معنى الجمالي ومعياريّته، وعلى علاقة الجمالي بالمعرفة التي ينتجها.

تختلف ولا شك سبل انتاج المعرفة، وتتنوّع جماليّات الخطاب الأدبي. لكن، يبقى الانسان، باعتبار تاريخه وواقعه وحلمه، محورها.

ويبقى من ثمّ السؤال :

كيف يمكن لهذا الانسان ان يمتلك وعياً نيراً يحاور به مرآة حياته ؟

وهل هو واجد في الخطاب الثقافي-الأدبي هذه المرآة ؟

وما هو المنظور الذي يمكن لهذا الحوار ان ينطلق منه ؟

كانت الكتابة مرآة لصورة أناس من أهلي قرأت فيها، حين قرأت الكتب، صورة لإنسان عربي مسحوق.

كانت الكتابة حاجة في دمي تنتقل داخل القلب من طرف الى آخر كي تأخذ من الهواء ما تستمرّ به الحياة.

كانت الكتابة حاجة بحجم الخليّة التي تمسك الروح، وصارت حاجة بحجم الكون الذي يضيق، عند الكتابة، عن أحلام هذه الروح.

كانت في مكان حدود البيت والوطن، وصارت الى مكان أوسع من كل بيت ووطن.

يمنى العيد

* لبنانية
* ثلاثة أولاد
* دكتوراه في الادب العربي
* استاذة في الجامعة اللبنانية
* ناقدة ادبية
* من مؤلفاتها
  - في *معرفة النص*، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣.
  - *الراوي : الموقع والشكل*، بيروت، مؤسسة الابحاث العربية، ١٩٨٦.
  - *الكتابة : تحوّل في التحوّل*، دار الآداب، ١٩٩٣.
* فائزة بجائزة الدراسات الأدبية والنقد من مؤسسة سلطان غوّيس عام ١٩٩٣-١٩٩٤.

*L'ÉCRITURE ? BESOIN INTIME**

Youmna AL-ID

Le mot nous interpelle : « Préservez mes jours, j'illuminerai vos nuits. Libérez-moi pour que je nourrisse vos rêves. » Critique littéraire ? Jeu de miroirs. Je lis les livres, je les interprète, lisant ainsi la vie à travers les livres que je réécris. Miroir des livres, des contes qu'ils racontent, du langage qui les tisse, du langage qu'on lit. Actes créatifs dans un espace imaginaire commun. Dialogue infini...

*WRITING ? A NEED FROM WITHIN***

The word calls out : « Safeguard my days and I'll illuminate your nights. Set me free and I'll feed your dreams. » Literary criticism ? A game of mirrors. I read books, I interpret them reading simultaneously the world seen through. The mirror of books, of the tales they recount, of the language which weaves them together, of the language we read. Creative acts in a common imaginary space. An infinite dialogue...

* *Version originale en langue arabe p.* ٣٧
** *The original Arabic version p.* ٣٧